

الأمير
عبدلقدار الجزائري
العالَمُ المجاهدُ

جمع وتحقيقه
نزار أباظة



الكتاب ٩٥٣

الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من دار الفكر بدمشق

سورية - دمشق - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - ص.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧، ٢١١١٦٦ - تليكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العالمية بدمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأمير
عبد قاور بن جزاري
العالم المجاهد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ما من مؤرخ تحدث عن الجزائر في عصورها الحديثة إلا وأشاد بالأمير المجاهد عبد القادر الجزائري ونوّه بفضلِه ومكاتبته حتى غدا هذا الأمير معلماً من معالم المغرب العربي الحر بما له من مآثر بطولية ملحمة سجلها التاريخ بحروف من نور . وما من مؤرخ كذلك درس تاريخ الشام المعاصر إلا وأشار إلى هذا الأمير العالم لما ترك من آثار واضحة في حياة دمشق وما حولها من جميع مناحيها السياسية والعلمية والاجتماعية وخلال المرحلة الطويلة التي عاشها هذا العلم في بلاد الشام .

كان الأمير عبد القادر شخصية عظيمة امتازت بصفات متعددة وفي جوانب مختلفة لفتت إليها الأنظار واستقطبت من حولها الرجال فلأت الدنيا وشغلت الناس .

لم يعرف الأمير مجاهداً وسياسياً فحسب ، ولم يبرز للناس عالماً أو زعيماً أو مصلحاً أو قائداً أو صوفياً فقط بل كان يجمع ذلك كله في نفسه الشّماء ، فقد بدأ حياته في بيت علم وصلاح وفضل فنشأ نشأة دينية تركز على الأخذ بأسباب العلم المشفوع بالعمل . وحينما تعرضت الجزائر لحنة الاحتلال وقامت الثورات ترفض العبودية ، وجدت أسرته أن لا بد من المشاركة في دفع العدوان والقيام بواجب الجهاد ، فأعلن أبوه العالم الصالح عندئذ قيامه بالثورة ، وبايعه أهل منطقته أميراً إلا أن الوالد مالبث أن اعتزل الإمارة فتركها لابنه الأمير الشاب فبايعه الناس بيعة عامة .

وإذ وجد الأمير نفسه في موقع المسؤولية فقد اضطلع بأعبائها وقام بها خير قيام ، فأسس دولته على قواعد العدل والنظام وأنشأها على التنظيم الحديث المدروس كما يجب أن تكون الدول ، وضع لها دستوراً كأحسن الدساتير ، وضرب النقود باسمها ، وافتتح معامل الأسلحة والألبسة وعين رجال الدولة ومجالس الحكم وعياً جيشه التعبئة المثالية وبذا غدت مدينة معسكر عاصمة حكمه وأصبحت إحدى العواصم المعروفة المنظورة إليها .

وحينئذ هابه الفرنسيون وحسبوا له حساباً واضطروا أن يعقدوا معه معاهدة أقروا له بموجبها بالسلطة على معظم مقاطعة وهران ، واعترفوا له فيها بدولته الفتية التي مارست أعمالها كالدول الأخرى وكان لها قناصلها .

ولكن غدر الفرنسيين وتآلب بعض القبائل على الأمير المجاهد لم يترك له فرصة للراحة البتة واضطر سريعا إلى خوض عدد من المعارك المظفرة فأقلق العدو وحشد له الجيوش حتى اضطروه إلى التسليم بالشروط التي وضعها . بيد أنهم غدروا به فساقوه سجيناً إلى فرنسا حيث بقي مدة قبل أن يصدر قرار نابليون الثالث بالعمفو عنه فسافر إلى بروسة والقسطنطينية ثم قرر سكنى دمشق .

وفي دمشق بزغ نجم الأمير منذ دخلها واستقبله أهلها كباراً وصغاراً وأحبه العلماء والصلحاء والصوفيون فالتفوا حوله وكانت مجالسه عامرة بالعلم والذكر والمناظرات . وأحب المدينة المباركة هو بدوره فأقبل على أهلها وأصفاهم الود وإساهم في محنهم دون تفريق بين طبقة من الطبقات وكانت أبرز مواقفه العظيمة في فتنة عام ١٨٦٠ م المشهورة وظهر فيها بطلاً جريئاً ورجلاً عاقلاً .

وقبل أن يسكن الأمير دمشق بعد جهاده الميون كانت له فيها ذكريات حينما ألم بها يوم سافر للحج مع والده فالتقى فيها بشيخ النقشبندية ، الشيخ خالد النقشبندي المجددي فأخذ عنه الطريقة . ويبدو أن ذلك اللقاء كان ذا مغزى عظيم فهذا الأمير

صوفي عريق في التصوف ولعل التصوف كانت السمة البارزة التي عاش بها ومات عليها
فيمكن أن ننزله في طبقات الصوفية مثلما أنزلناه في صفوف المجاهدين .

ولاهتمام الأمير بالتصوف أرسل عالمين كبيرين (محمد الطيب ومحمد الطنطاوي)
فتجشما رحلة طويلة إلى قونية ليقابلا نسخته من كتاب الفتوحات المكية بنسخة مؤلفه
الموجودة هناك فلما رجعا تولى الأمير إقراء الكتاب وحضر القراءة جمع من علماء دمشق
البارزين ممن كانوا لا يبرحون حلقة .

ولقد تمكنت قدم الأمير من علم التصوف فغدا أحد أعلامه في القرن الثالث عشر
وله فيه مشرب ومنهج انتهى به إلى تأليف كتابه المشهور (المواقف) الذي ينبئ عن
إحاطة شاملة في علوم كثيرة إلى جانب المنهج الصوفي .

وإذا طالعنا قصائده أنبأتنا عن شاعر ذي نفس شعري لطيف وحساسية شعرية
فيأضه عنها شعره بنسج محكم البنيان .

كان الأمير عبد القادر إذن شخصية عظيمة ولا شك أعجب به الكثيرون وقد
أشرنا إلى اهتمام الدمشقيين به كل الاهتمام ونضيف هنا إلى أنهم رأوا فيه شخصية قيادية
محبوبة تستطيع حكم البلاد بالعدل والحق فأرادوا مبايعته حاكماً عليهم دون الدولة
العثمانية بعد فتنة الستين إلا أن الأمور لم تتم .

وطار صيت الأمير في أرجاء الدنيا فاحترمه الفرنسيون احتراماً جاوز مستوى
الرسميات إلى طبقات الشعب وأعجب به السياسيون والأمراء وذوي النفوذ في كل البلاد
وقدّره السلطان العثماني حق قدره ودعاه الحديوي إسماعيل لحضور افتتاح قناة السويس
مع كبار الشخصيات العالمية من السلاطين والأباطرة والملوك . وكان أينما حلّ في
العواصم أو البلدان احتفى الناس به ودعوه ومشوا في ركابه .

وبعد :

فهذه نبذة عن حياة الأمير المجاهد العالم الصوفي الشاعر السياسي أقدمها للقراء مختصرة وقد سبق كثيرون في الكتابة عن الأمير بأكثر من لغة وفصلوا الحديث عنه كما أشرت إلى المراجع التي اعتمدت عليها يمكن لمن أراد الاستزادة الرجوع إليها وبحسبي أن ما أقدمه يعد اختصاراً شاملاً أتيت فيه على الجوانب الأساسية في حياة الأمير .

أسأل الله أن ينفعني ويسدد خطاي إنه ولي التوفيق .

الأمير عبد القادر الجزائري^(١)

١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ

١٨٠٧ - ١٨٨٢ م

الأمير المجاهد الصوفي الأديب.

عبد القادر بن محيي الدين بن المصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر ابن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خذّه وهي مرضعته ابن محمد ابن عبد القوي، بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الإمام الحسن السبط رضي الله عنهم^(٢).

وأصل أسرته من المغرب الأقصى، هاجرت من هناك إلى نواحي وهران، واشتهر رجال منها بالورع وكانوا قدوة للناس.

ولد الأمير عبد القادر يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة ١٢٢٢ هـ ببلدة القَيْطنة من أعمال (معسكر) بالمغرب الأوسط في بيت علم وتقوى، وتربى في رعاية والده وحفظ القرآن الكريم في مدرسته، وقرأ عليه الفقه وغيره، وأخذ العلم على أهله.

(١) الروض البسام ٣٩، إيضاح المكنون للبغدادى ٣٢٦/١، ٥٤٥/٢، هدية العارفين ٥٠٦/١، تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٢١٦/٤ - ٢١٧، مشاهير الشرق لزيدان ١٥١/١ - ١٥٩، جامع كرامات الأولياء ١٠١ - ٩٩/٢، أخبار مكتاس لابن زيدان ٥٠/٥ - ٧٤، الحقائق الورديّة ٢٨١، ديوان الهلالي ١٦ - ٢١، ٤١ - ٤٣، ٥٣ - ٥٥، ٦٩ - ٧٠، ١٩٦ - ١٩٩، حلية البشر ٨٨٣/٢، تمطير المشام، ج ٢ (خ)، منتخبات التواريخ ٧٤٠، تحفة الزائر، معجم المطبوعات لسركيس ٦٩١ - ٦٩٣، دائرة المعارف للبيستاني ٦١٦/١١ - ٦٢١، أعيان البيان للسندوبي ١٧١ - ١٩٠، الآداب العربية لشيخو ٨٣/٢ - ٨٤، فهرس دار الكتب المصرية ٢٣٧/٧، ١٤١/٨، فهرس مخطوطات الظاهرية (الشعر) ١٨٣، ٣٥٠، أعلام الأدب والفن ٢١٩/١، الأعلام ٤٥/٤، معالم وأعلام ٢٤٢/١، أعلام الإسلام لمحمد سعيد الطنطاوي ٥٧، مصادر الدراسة الأدبية ٣٥٨/٣، معجم المؤلفين ٣٠٤/٥، أعيان دمشق ١٧٦ - ١٨١، فهرس مخطوطات الظاهرية (التصوف) ١٠/١، ٩٣/٢، ١١٠، ٤٤٣، ٨١٣، (المجاميع) ١٤٣/١، مجلة مجمع اللغة العربية ٤٥١/١٠، الأمير عبد القادر، للعماد مصطفي طلاس، أعلام الإسلام، لعبد الوهاب سكر ٤٦، التصوف والأمير عبد القادر، لجواد مرابط.

(٢) اعتمدنا في هذا النسب على كتاب (حلية البشر ٨٨٤/٢) وكتاب (الروض البسام ٣٩ - ٤٠)، وكتاب (تحفة الزائر ٩٢٣) وفيه قصيدة للشّيخ محمود حمزة نظم فيها النسب مطلعها:
يا حبذا الوعد والإنجاز يصحبه حاشا علاكم بأنّ الخلف يعقبه

سافر سنة ١٢٣٦ هـ إلى وهران وحصل منها، وأكمل دراسته وبرع في مختلف العلوم حتى فاق أقرانه بالأدب والتوحيد والفقه والحكمة العقلية. وكان يحفظ أكثر صحيح البخاري. كما كان له ولع بالفروسية والسلاح لا يهملهما، فصار عالماً فاضلاً، وفارساً مدرباً، وجمع بين السيف والقلم.

وفي سنة ١٢٤١ هـ قصد مكة المكرمة مع والده فمشيا براً إلى تونس أولاً ثم ركبا البحر إلى الإسكندرية، فالسويس فجدة وبعد أداء فريضة الحج توجهوا إلى دمشق وبقياً فيها مدة، فأخذ هو الطريقة النقشبندية على الشيخ خالد النقشبندي، ومنها رحل إلى بغداد فأخذ الطريقة القادرية على الشيخ محمود الكيلاني، ثم رجع إلى دمشق، ومنها ارتحل إلى مكة المكرمة مع والده فأديا فريضة الحج مرة أخرى، ورجعا عن طريق البر إلى بلدهما سنة ١٢٤٣ هـ.

وفي سنة ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م حينما بدأ الفرنسيون باحتلال الجزائر، واضطر حسن بك حاكم وهران التركي لتسليم البلدة، دارت رحى القتال بين الحامية الفرنسية والأهالي، وتولى قيادتهم حينئذ والده السيد محيي الدين وقام معه بأمر الجهاد فقاتل ستين، أظهر خلاليهما بسالة وإقداماً، ورباطة جأش، وأصالة رأي، مما جمع له محبة الناس.

بايع والده أهل (القيطنة) أميراً عليهم لمكانته العلمية وصلاحه وشجاعته، ثم اعتزل الإمارة واختاره عوضاً عنه فتقدم إليه مبايعاً معتذراً بتقدم سنه، ثم بايعه مجلس علماء مدينة معسكر في ٣ رجب ١٢٤٨ هـ/ ٢١ تشرين الثاني ١٨٣٢ م، ثم بايعه الناس بيعة عامة في ١٣ رمضان من السنة نفسها ٤ شباط ١٨٣٣ م، وكان ممن بايع القبائل الشرقية والأحياء الغربية. ولقبه والده بأمير المؤمنين ناصر الدين، وقيل إنه بويج بالسلطنة، فلم يرض بلقبها مراعاة لسلطان فاس، واكتفى بلقب الإمارة. ثم أجمعت الجهات الغربية والجنوبية على إمارته وبيعته.

أقام الأمير عبد القادر الإمارة على الفضل والعدل والنظام، وباشر الأعمال، وركب الأخطار، وضرب النقود من الفضة والنحاس، وأنشأ معامل الأسلحة واللباس، وجعل مدينة (معسكر) حاضرة إمارته. ووضع للدولة الفتية دستوراً تضمن مجموعة القوانين التي نظمت الدولة^(١).

(١) طبعه في دمشق حفيده باسم وشاح الكتائب وزينة الجيش الغالب.

عبد الأمير جيوشه بشكل منظم، وعين رجال الدولة، وعين وزيراً (محمد العربي) وكاتباً (ابن عمه أحمد بن علي)، ورتب مجلساً للشورى من أحد عشر عضواً، ورئيسهم قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي.

ولما رأت فرنسا ذلك وقيامه بأمر الدين والجهاد والوطن هابته وحسبت له حساباً.

وفي ٢٥ رمضان سنة ١٢٤٩هـ/ ٢٦ شباط ١٨٣٤ م عقد مع فرنسا معاهدة دي ميشيل اعترفت له فيها بمقاطعة وهران ما عدا مدينة وهران ومستغانم والجزائر، وأن يستورد السلاح من أي جهة أراد، وأن يعين معتمدين (قناصل) في وهران والجزائر ومستغانم وغيرها. فعظم شأنه وقوي سلطانه وأصبح أمير الجزائر الشرعي.

تفرغ بعد ذلك لمقاومة الخارجين عليه، ففضى على فتنه ابن نونة في تلمسان، وامتد سلطانه على بعض البلاد المجاورة التي لم تكن داخلة ضمن حدوده وقت المعاهدة مثل مدينة وملدانة، ورتب فيها المسالحي بالرغم من احتجاج حاكم الجزائر العام.

ثم ما لبثت المعاهدة أن نقضت حين انضمت إلى الحاكم الفرنسي قبيلتان جزائريتان هما الدوائر والزماله، فطلب الأمير منه تسليم رؤسائهما إليه حسب شروط المعاهدة، فأبى الحاكم الجنرال تريزل، فأعلن الأمير القتال من جديد وانتصر على الفرنسيين في معركة المقطع ٢٦ تموز ١٨٣٥ م.

وفي ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٥٢ هـ جردت فرنسا جيشاً عظيماً بقيادة المارشال كلوزل، فاستولت على مدينة معسكر عاصمته، ولاقي الأمير مقاومة من الفرنسيين أمامه ومن الأتراك خلفه في قلعة تلمسان، لكنه بقي ثابتاً موفراً القوة حتى اضطرت فرنسا إلى مصالحته من جديدة في معاهدة التفنة ٣٠ أيار ١٨٣٧ م، اعترفت له بموجبها بجميع مقاطعة وهران وقسم كبير من مقاطعة الجزائر.

شرع الأمير بعد ذلك بتوجيه سلطته على تلك البلاد التي دخلت حديثاً تحت سلطانه وكانت الأطراف جميعاً راضية به ما عدا المراتب محمد التجاني الذي أبى الاعتراف بإمارته عليه فتقدم إليه الأمير بجيشه فحاصره في قصر عين ماضي خمسة أشهر وفتحته مع منعه واستعصائه على الأتراك طيلة حكمهم للجزائر.

نظم الأمير جيشه وفق الجيوش الحديثة، وقسمه إلى مشاة وفرسان ومدفعية واستعان بضباط من التونسيين والفارين من الجيش الفرنسي والمجندين عند الأتراك، كما اختص بنظام في اللباس والمأكل والرواتب والتعليم والترقية، وأعد معامل السلاح ومخازن الذخيرة والمؤن، ورسم القلاع ولم يغفل عن شيء مما يلزم لتأسيس الحكومات.

وفي ١١ رمضان ١٢٥٥ هـ / ١٦ كانون الأول ١٨٣٩ م نادى الأمير بالجهاد، وقامت الحرب أربع سنين بعدها ثبت فيها الأمير الثبات الذي خلد له الذكر. وكان سبب استئناف القتال هو أن الفرنسيين نقضوا المعاهدة متعللين بتفسيرات لها.

ثم تفوق عليه عدوه وسقطت أكثر حصونه، واستولى على أكثر مدنه، وفر معظم أنصاره، فانهاز إلى المغرب ساعياً في إقناع سلطانه ليدخل الحرب ضد الفرنسيين، فأجاب وكانت موقعة إيسلي في ١٢ آب ١٨٤٤ م، إلا أن الأعداء تفوقوا عليهم، وضربوا طنجة ومغادور بالمدافع من البوارج الحربية، وضيق فرنسا على المغرب من البر والبحر، فاضطر السلطان مولاي عبد الرحمن إلى عقد صلح معها في أيلول ١٨٤٤ م بشروط أملت عليها كان أولها: عدم تمكين الأمير عبد القادر من اجتياز حدود الجزائر، فبقي في المغرب نحواً من ستين، ينتظر ثغرة تمكنه من الدخول على العدو.

ولما كانت سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م قامت ثورة في الجزائر، فانقض عليها ثانية وبلغ بلاد البربر المسماة عند الفرنسيين (كابيلي) واستعاد مركزه كما كان، فما لبث الفرنسيون أن أحاطوا به من كل جانب فاضطر إلى الانسحاب ثانية إلى المغرب، فطالبته فرنسا سلطانها وفق المعاهدة التي بينهما فاضطر أن يعيى حملة ضد الأمير الذي رأى نفسه محاصراً بين قوتين لا طاقة له بهما، فسلم نفسه للفرنسيين في شهر المحرم ١٢٦٤ هـ / كانون الأول ١٨٤٧ م بعد مشاورة أصحابه.

ولما قرر التسليم أرسل إلى الجنرال لأمورسيير رئيس الجيوش الفرنسية رسولاً من حاشيته ليخبره باستسلامه، فلما وصل إلى الجنرال اهتز سروراً وبادر إلى ورقة مهرها بختمه على بياض، وأرسلها مع الرسول ليشرط فيها الأمير ما يريد ويبت معه سيفه.

اشترط الأمير سلامته وسلامة أسرته ووزرائه وضباطه، واتفق معهم أن يخرج

بأسرته إلى عكا أو الإسكندرية، وأن يكون كل من بقي في البلاد آمناً على حياته وماله.

وخدع الفرنسيون الأمير، فلما كان في المركب الحربي الذي خصصوه لنقله، وكان معه ما يقرب من ثمانين شخصاً نقلوهم جميعاً إلى طولون ثم إلى أمبواز بعد ستة أشهر حيث بقي فيها سجيناً حتى عام ١٢٦٦ هـ / ١٨٥٢ م، ونقل إلى بوردو ثم إلى نانت ثم أعيد إلى أمبواز أخيراً.

كان في سجنه عالي الهمة لم تؤثر فيه شدة المشاق التي أحاطت به من كل جانب، وكان الناس يأتون إليه من أنحاء فرنسا وغيرها لزيارته ومنهم أصحاب المناصب والضباط والقواد الذين كانوا يدهشون لسمو همته وتسليمه للقضاء والقدر، وتظاهره بالبشر والفرح مع ما هو فيه.

ثم حضر إليه في أمبواز الإمبراطور نابليون الثالث فبشره بإطلاق سراحه، وأهداه سيفاً مرصعاً، وقال له: «لقد سلمت سيفك إلى فرنسا ولكن فرنسا لا تريدك أن تخرج من بلادها بدون سيف، وها إنني أقدم لك هذا عوضاً عن ذاك». ورتب له في كل عام خمسة آلاف ليرة فرنسية.

ولما خرج من أسره توجه إلى باريس ثم الأستانة حيث قابل السلطان عبد المجيد خان فأكرم وفادته وأنعم عليه بدار فخمة في بروسة، ومدح السلطان بقصيدة طويلة منها:

الحمد لله تعظيماً وإجلالاً	ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا
والشكر لله إذ لم ينصرم أجلي	حتى وصلت بأهل الدين إيصالا
وما أتت نفحات الخير ناسخة	من المكاره أنواعاً وأشكالا
وامتد عمري إلى أن نلت من سندي	خليفة الله أفياء وإظلالا
فالله أكرمني حقاً وأسعدني	وحط عني أوزاراً وأثقالا
قد طال ما طمحت نفسي وما ظفرت	لكن للوصول أوقاتاً وأجالا
اسكن فؤادي وقر الآن في جسدي	فقد وصلت بحزب الله أجالا
هذا المرام الذي قد كنت تأمله	هذا منك فطب حالاً بما آلا
وعش هنيئاً فانت اليوم آمن من	حمام مكة إحراماً وإحلالاً
فانت تحت لواء المجد مغتبطاً	في حضرة جمعت قطباً وأبدالاً

وته دلالاً وهذا العطف من طرب
أمنت من كل مكروه ومظلمة
هذا مقام التهاني قد حلت به
وأبشر بقرب أمير المؤمنين ومن
عبد المجيد حوى مجداً وعز علا
كهف الخلافة كافيها وكافلها
يا رب فاشدد على الأعداء وطأته
وأظهرن حربه في كل متجه
وابسط يديه على الغبراء قاطبة
فالمسلمون بأقصى الغرب طامحة
كم خائف يرتجي أمناً بسطوته
فرع الخلافة وابن الأكرمين ومن
كم أزمة فرجوا كم غمة كشفوا
هم رحمة لبني الإيمان سائرهم
أنصار دين النبي بعد غيبته
قد خصهم ربهم في خير منقبة
كم حاول الصحب والآل الكرام لها
ما زال في كل عصر منهم خلف
حتى أتى دهرنا في خير منتخب
قد كنت مضمر خفض ثم أكسبني
وبالإضافة بعد القطع عرفني
هذا وحق علاه منتهى أمني
لا زال تخدمه نفسي وأمدحه
أهدي مديحي وحمدي ما حييت له
جزاه عني إله العرش أفضل ما

وغن وارقص وجر الذيل مختالا
فبح بما شئت تفصيلاً وإجمالاً
فارتع ولا تخش بعد اليوم أنكالا
قد أكمل الله فيه الدين إكمالاً
وجل قدراً كما قد عم أفضالا
من لا عهدنا له في القرن أمثالا
واحفظ حماه وزده منك إجلالا
وسددن منه أقوالاً وأفعالا
وذللن كل من في الأرض إذلالاً
أبصارهم نحوه يرجون إقبالا
وحائر يرتجي للحرز تسهلاً
شادوا عرا الدين أركاناً وأطلالا
كم فككوا عن رقاب الخلق أغلالاً
هم الوقاية أسوء وأهوالاً
في نصره بذلوا نفساً وأموالاً
ما خص صحباً بها قبلاً ولا آلاً
والله يختص من قد شاء إفضالا
يحمي الشريعة أقوالاً وأفعالا
من آل عثمان أملاكاً وأقبالا
رفعاً وقد عمني جوداً وإفضالا
وقد نفى عني تصغيراً وإعلالاً
قد حط عني بمحض الفضل أنقالاً
مستغرق الدهر أبكاراً وأصالاً
أفادني أنعماً جلت وإقبالا
جازى به محسناً يوماً ومفضالا

وأقام في بروسة حتى سنة ١٢٧٠ هـ حين عاد إلى الآستانة ومنها توجه إلى
باريس، ثم عاد إلى بروسة، وكان يدرس فيها بجامعة العرب القريب من داره، أقرأ فيه
ألفية ابن مالك بشرح المكوذي والسوسية بشرح المصنف وإيساغوجي للنفاري
والإبريز للدباغ.

وفي سنة ١٢٧١ هـ عزم على سكن دمشق، فارتحل إليها عن طريق بيروت التي وصلها في ٥ ربيع الآخر ١٢٧٢ هـ / ٢٤ تشرين الثاني ١٨٥٦ م، فاستقبله أهل بيروت برئاسة واليها نامق باشا استقبلاً كريماً واجتمع أمراء تلك المنطقة ومشايخها لملاقاته في جبل لبنان، ورتبوا جموعهم، وأطلقوا البنادق، وساروا عن يمينه وشماله يرتجزون. ونزل ضيفاً على الكولونيل تشارلز تشرشل الإنكليزي^(١) ليلة واحدة، ثم سار يقصد دمشق فبلغ الخبر واليها محمود نديم باشا فخرج هو وعزة باشا رئيس العسكرية وغيرهما من أعيان البلدة لملاقاته فوافوه عند قرية دمر.

ودخل دمشق في حفاوة وتكريم، وتقدمت موكبه كتيبة من الجيش تعزف الموسيقى العسكرية، واستقبله أهل دمشق أحسن استقبال. وقيل: إنه لم يدخل دمشق عربي رحب به هذا الترحيب منذ صلاح الدين الأيوبي. ويقول الأمير بهذه المناسبة: «قد فرح بنا أهل البلد وخرجوا كلهم للقيانا الرجال والنساء». وقال أيضاً: «لقد استقبلني الدمشقيون أحسن استقبال وعدوا يوم دخولي مدينتهم كيوم عيد فالرجال والنساء قد تسابقوا أمامي».

وإثر دخوله دمشق توجه مباشرة إلى زيارة جامع الشيخ محيي الدين بن عربي، ثم اتخذ له سكناً بمعرفة والي دمشق، وعرفت داره بدار السيد، وكانت تعرف بدار عزة باشا، وأصلها للقاضي محيي الدين بن الزكي. وبنو الزكي هم الذين نزل بهم الشيخ محيي الدين بن عربي حينما قدم دمشق وتزوج منهم وسكنهم في هذه الدار ثم دفن بمقبرتهم في سفح قاسيون.

وبدأ الزوار يتوافدون إليه وكانت أحاديثه في لقاءاته معهم تدور حول العلم والصلة الروحية بالله تعالى ولم يحدثهم عن نفسه. وأخذ الطريقة المولوية آنذاك عن الشيخ صبري شيخ الطريقة بدمشق.

ولما رحل الأمير من بروسة قاصداً دمشق، أنعم عليه السلطان بألف كيس بدلاً من الدار التي كان أهدها إياها. فاشترى بدمشق دارين واسعتين بينهما دار صغيرة في زقاق النقيب بالعمارة، هدم إحداها ونعق آثارها وابتنى في موضعها داراً جميلة، ولما تم بناؤها وأصلحت الداران الأخريان انتقل من الدار التي استأجرتها له الدولة

(١) هو الكولونيل تشارلز هنري تشرشل، جاء إلى لبنان سنة ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م على رأس هيئة أطلق عليها اسم البعثة البريطانية في سورية. واشترى قرية بحوارة وهي بين عاليه وبحمدون وبني فيها بيتاً. وهو ينتسب إلى أسرة تشرشل الإنكليزية المشهورة. توفي ببيروت (التصوف والأمير عبد القادر ١٩).

العثمانية إليهن وذلك سنة ١٢٧٤ هـ وهنأه بسكناه الجديد الشعراء منهم حسن الدجاني وأمين الجندي وغيرهما.

ثم اشترى بدمشق سبع دور أخرى جعل إحداهن منزلاً لأضيافه، وعدة دور في محلة العمارة البرانية جعل بعضها حديقة مقابلة للدور، وكان بردي يمر بين الدور والحديقة.

واشترى مزرعة بدير بحدل بالغوطة وعمر بها بيتاً، وأرضاً في أشرفية صحنايا، وأرضاً في قرية قرحتا بطرف الغوطة، ومزرعة بلاس، وطاحونة الإحدى عشرية، وخان الصعب بالعمارة، وأرضاً بوادي دمر، وبنى فيه قصراً لمضيفه. ولما تم بناؤه صنع وكيرة ودعا إليها العلماء والأعيان وقرؤوا بعدها شيئاً من صحيح البخاري للتبرك، وهنأه الشعراء؛ بالقصر في قصائدهم ومنهم الشاعر عبد الغني الرافي الطرابلسي.

وفي سنة ١٢٧٣ هـ توجه إلى بيت المقدس والخليل للزيارة فذهب من طريق صفد ورجع من طريق حوران. ومدحه الشاعر حسن الدجاني حين توجه إلى يافا إجابة لطلب مفتيها بقصيدة مطلعها:

عهدنا بغرب مطلع البدر مشرقاً وإننا نراه الآن قد لاح مشرقاً
وللغرب أصل الفضل إذ هو مطلع وإن يك بدر التم في الشرق أشرقاً
وأرخ في البيت الأخير تلك الزيارة:

وأضحى ليمن بالقدوم مؤرخاً إلى المسجد الأقصى سرى يطلب التقى
وفي شهر رمضان من السنة نفسها قرأ (صحيح البخاري) في مدرسة دار الحديث الأشرفية، وكتاب (الإتقان) وكتاب (الإبريز) في المدرسة الجمقمقية.
ثم في شهر رمضان من سنة ١٢٧٥ هـ اعتكف في الجامع الأموي، وقرأ كتاب (الشفاء) والصحيحين في مشهد سيدنا الحسين رضي الله عنه.

الأمير وحادثة الستين ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م:

لم تكذ الأنباء تتوارد عن قرب وقوع هذه الفتنة حتى جمع الأمير العلماء والوجهاء والأعيان من أهالي دمشق وجماعة المهاجرين المغاربة وخاطبهم قائلاً: «إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم. أحذركم أن تجعلوا للشيطان الجهل فيكم نصيباً، أو أن يكون له إلى نفوسكم سبيلاً».

ومع تحذير الأمير انطلقت شرارة الفتنة بدمشق يوم الإثنين ٢٠ ذي الحجة ١٢٧٦ هـ / ٩ تموز ١٨٦٠ م وبقي الأمير أربعة عشر يوماً متوالية لم يفتّر فيها لحظة عن نصرة المظلومين، وإنقاذهم من القتل، وأشرف على تطيب الجرحى، وقام على تعزية الثكالى والأرامل واليتامى. وكان يقضي أكثر الليالي ساهراً ويندقيته في يده حرصاً على من في حماه، فإذا غلب عليه النعاس أسند رأسه إلى فوهتها قليلاً وغفا.

وشاركه في موقفه وأعماله في صد الفتنة كثير من أعيان دمشق مثل الشيخ محمود حمزة مفتي دمشق، وآل العابد، وآل المهاني، وغيرهم.

وبلغ عدد الذين أنقذهم الأمير من القتل والعذاب ممن التجؤوا إلى داره نحواً من خمسة عشر ألف شخص من القناصل وأعيان النصارى والرهبان والراهبات. ولما ضاقت بهم داره بعث بقسم منهم إلى قلعة المدينة. كما احتفى بحي السوق وبخان المغاربة نصارى الميدان، وكان نتيجة ذلك مقتل عدد من المغاربة هناك كان بينهم فضلاء رافقوا الأمير في جهاده وهاجروا معه من الجزائر.

وفي اليوم الثالث من الفتنة تجمع الغوغاء عند باب الحديد في حي العمارة بغية اقتحام بيت الأمير فخرج إليهم، ولما التقى بهم انصرفوا قاصدين بيوت أعيان المسلمين الذين شاركوا الأمير في حماية النصارى للفتك بمن احتفى بها، فأرسل هؤلاء الأعيان إلى الأمير يطلبون النجدة، فبعث إلى كل منهم بجماعة من رجاله.

وطلب منه جماعة من النصارى أن يؤمن لهم طريق الوصول إلى بيروت ففعل وأبلغهم مأمهم.

ولم يزل الأمير يعاني من هذه الفتنة إلى أن حضر إلى دمشق فؤاد باشا وزير الخارجية العثماني، وأجرى فيها الأحكام العرفية، فقبض على زمام الأمور، وسجن آفاقاً من الناس، وعيّن مجالس خاصة للمحاكمات فقتل من ثبت عليه القتل أو إثارة الفتنة، ونفى جماعة من الأعيان، ثم عقد مجلساً عسكرياً للنظر في أمر الوالي أحمد باشا وجماعة من رؤساء الجند، وأقر الأمن.

وأرسلت فرنسا إلى بيروت إبان الفتنة عشرة آلاف جندي بقيادة الجنرال بوفور وبعثت بقية الدول مراكب حرية ومعتمدين لمراقبة ما سيفعله وزير الخارجية فؤاد باشا. وفي أثناء ذلك حصل خلاف بين هذا الوزير المذكور والجنرال الفرنسي، فبعث الجنرال رسولاً إلى الأمير عبد القادر يخبره بأنه قرر ضرب دمشق من جبال الصالحية ونصح له أن يخرج منها بأهله، فاغتم الأمير واجتمع به في قب الياس وأظهر له سوء

العاقبة من ضرب المدينة، فأصر على موقفه، فهدده الأمير حتى عدل عن فكرته وسلم الله دمشق.

وكتب الأمير بعد الفتنة معبراً عن سبب موقفه النبيل الذي فسرهُ الناس تفسيرات مختلفة يخاطب ملكة بريطانية: «إنني لم أفعل إلا ما توجبه علي فرائض الدين ولوازم الإنسانية».

منحته الدول الأوروبية الأوسمة الفخرية وكلها من المرتبة الأولى، فنال وسام الجوقة الفرنسي، ووسام صليب النسر الأبيض الروسي، ووسام صليب النسر الأسود البروسي، ووسام صليب المخلص اليوناني. وأهدت إليه ملكة بريطانية بندقية مرصعة بالذهب.

ومدحه الخطباء والشعراء، فقال الشاعر أمين الجندي:

إليك، انتهى المجد الرفيع المؤئل تفرّدت في الأفاق، بالسؤدد، الذي سموتَ سموَ البدر، في برج عزه ألست ابن سلطان الرجال!! ومن له أما أنت من آل النبي، كدرّة أما أنت كشف الكروب، عن الوري؟! حماك؛ غدا للناس آية كعبة وموردك السامي؛ صفا عن كدورة ظهرت بأوصاف الكمال. وإنما ومن ظن يستوفي المديح أو الثنا ولا عجباً!! فالله جلّ جلاله ملكتم زمام المجد؛ فانقاد مسرعاً ملأت قلوب الناس: لطفاً وهيئة جمعت الندى، للحلم. والبأس، للثقى تهاب ليوث الغاب، في أجماتها وقفت على سرّ الحقيقة؛ فانجلت وأبرزت، من كنز العلوم، دقائفاً حفظت بلاداً، كنت فيها مملّكاً وحاريت قوماً، أهل بأسٍ وشدة	وعنك؛ أحاديث المكارم، تنقل على فضله، بين الأنام؛ المعول ونورك، للأكوان - مولاي - يشمل على كلّ قطب، في الوجود، التفضل تجلّ، فلا يجري عليها التمثل؟؟ ومنجدهم؛ إن حلّ خطب، ومعضل؟! فما عنه للعافين - يوماً - تنقل فمنه، ذوو الآمال؛ بالبشر، تنهل لديك؛ انطوى ما بعضه اللب؛ يذهل عليك، إذن؛ عند التأمل، يخجل!! عليم. يرى؛ حيث الرسالة، يجعل إليك. وقوم حاولوه؛ فحوّلوا وكل إذن؛ في باب، جاء يجمل فأنت لمن وافاك؛ ركن، ومنهل سطاق. ويرجو البرّ منك؛ المؤئل لديك، عروس الإنس، بالعزّ، تخجل يعزّ - إليها - عن سواك، التوصل بعزمك، دهرأ، فيه ذو الحزم؛ يحلل لهم بين شجعان الخليفة؛ منزل
--	---

وكننت عليهم ظاهراً، في مواقف
أقرُّ بذا خصم، هُشمت ذراعهُ
وفي الشام، لما أن بغى الناس، واعتدى
نهضت لإخماد الفساد، بهمة
حقنت دماء؛ حرّم الشرع سفكها
بذلت، من الأموال؛ وفراً. بمثله؛
صنيعك هذا؛ ليس يقدر قدره
قصدت به مرضاة ربك، مخلصاً
ملوك الورى - طراً - حبّتك علائماً
وصيتك؛ عمّ المخافقين. فلا يرى
كفى أهل هذا العصر، عزّاً ورفعة
وحقّ لي التشريف، إذ كنت سيدي!!
وجدك، في سلمان، قال مقالةً
لأرفل في قومي بشوي، كرامةً
أقلّ عثراي. واتخذني لمحكّم
فما كل من ألقى الدراري، بصوغها
وإني - وإن قصّرت - فالعذر واضح
فلا زلت ملحوظاً، بعين رعاية
وما بسط الداعي الأكفّ لربه
وما أشرقت شمس. وما هبّت الصبا

وقال الشاعر سليمان الصولة:

شقيقة الروح!! ما أجرى الدموع دماً
ولا أطار منامي، عن مواطنه
وساق بينك لي؛ روعاً، نفى ورعاً
سقمنا؛ لم أدرِ تعذبي بأيهما:
حكمت لي بالهوى. والجور عادته
الله بي فقد أصبحت في وجل
هيهات!! لا صبر، بعد الهجر، يسعفني
إن كنت سالية عهدى؟ فقد شمت

بها؛ تقف الأفكار، عجزاً، وتخبّل
وهذا؛ هو الفضل، الذي ليس يجهل
على بعضهم بعض، بما ليس تقبل
نزيل الرؤوس. والأسود تجندل
وصنت، من الأعراض، ما لا يحلّل
يضمّن سخّي الطبع، والتمنّول
ولا أحد - حقاً - له يتوصّل
وما خاب عبد، في رضا الله؛ يعمل
على شرف، في حوزة، أنت أول
نكير له، في الكون. أو متأول
وجودك فيهم!! ما لذلك معدل
ومن أين لي - لولاك رضاك - التوصل
فقل، أنت مني، بالقبول مجمل
وعزاً. وضدي، بالمذلة يرفل
هزاراً، عليه المدح في الغير، ينقل
عقوداً. ولا كلّ الأقاويل، تُقبل
وما زلت، عفواً منك - مولاي - أسأل
من الله، ما سار الحجيح يهّل
وما قام، في جنح الدجى، متوسّل
وما خصّ، بالتسليم، في الناس، مرسل

إلا فراقك. دون الآل والندما
غير الصدود، الذي سرّت به الخصما
كنت الصّوول به، طفلاً ومحتملاً
سقم اصطباري، أم أجفانك السقما
أأشتكي جوره؟ أم جور من حكما؟
لو حل أيسره بالزهر؛ ما ابتسما
وبعد شهد اللما؛ صبر المشوق، لماً؟
بنا الوشاة. وأما إن وصلت؛ فما!!

أما أنا؛ فكما تدرين، مكتئبٌ
 رضيت بالشوق قوتاً. والغرام رداً
 إن كان بيتك ضيقاً؛ فاللقا فرج
 حامي الشأم، وقد دارت دواثرها
 وكاشف الضرر عنها؛ بعدما عثرت
 الألمعي، الأبى، العبري. أبو الأ
 السيد، السند، الفرد، الذي انقسمت
 وجاءه من ملوك الأرض، كلُّ ثنا
 وأنجم من نياشين مكرمة
 تسمو الملوك بها قدراً. فتحملها
 يا مَنْ تخوَّف دهرأ، عاث أرذله
 هو الأمير، الذي قلَّت صوارمه
 فذا الزمان، وحيد العصر، خيرَه
 المشيع القوم أطياراً؛ إذا التمسوا
 درَّ الغمامة. إلا أن صيَّبه
 لو لم يكن أوحَدَ الأوحاد؛ ما اجتمعت
 الله!! يا ابن المعالي، بي!! فقد نهبت
 وقلَّ صبري. وما صبري؟ وقد بلغ السيل الزبي. وتناهى الأمرُ بي عظماً؟!
 كانت جوائز شعري، عندكم؛ ذهباً
 فاردد، بجاهك، كيد الحاسدين على

لم أسل منك رضاياً، قد حلا، وفما
 والحبُّ ديناً. وسلطان الهوى حكماً
 إذا تولاه عبد القادر؛ اقتحما
 وقامت العرب فيها، تقتل العجما
 أي العثار. وحأكت أسدها الغنما
 شبال، نخبة باقي السادة العظما
 به العدا. وعلاه الفرد؛ ما انقسما
 يزري شذاه؛ سحق المسك منتسما
 يشف عنها شعاع الماس مبتسما
 يوم المفاجر، حتى تدرك العظما
 يتم حماه؛ تجد ممّا تخاف، حمى
 عزائم الدهر؛ لمّا جار واحتدما
 ثبت الجنان، طويل الباع؛ إن هجما
 والمشيح الطير أقواماً؛ إذا انتقما
 يوم الساحة؛ درُّ يفخر الديما
 على مدائح: البادون والقدما
 حوادث الدهر مني، ما جمعت وما
 حاد السيل الزبي. وتناهى الأمرُ بي عظماً؟!
 فامن عليّ بها - يا سيدي - كلما
 نحورهم. وعلى مدّاحك النعما

وقال الشاعر إبراهيم الأحذب نائب المحكمة الشرعية ببيروت:

لجيرة، من حمى جيرون، قد بانوا
 فلا اثثنى بعدهم، في روضة، بان
 غداة تطربني، بالوصل، الحان
 إن المعالي، لها الأرواح أثمان
 يقبل عذاري. فأمسى وهو شيان
 أيام، أنعم لي بالقرب؛ نعمان
 يسلو عن الماء، بالنيران، ظمآن
 ولا غزتي، بالأحداق، غزلان

قلب، بنار الأسى والوجد؛ حيران
 بانوا؛ فبانَت مسرّاتي بهم، أسفاً
 عربٌ بإحسانهم. قد أعربوا كلفي
 بذلت روحي؛ لأدنو من منازلهم
 وقد ألفت بهم، خلع العذار. ولم
 يا حيداً!! عهد نعمان الأراك بهم!!
 ريم؛ أروم التسلي عن هواه. وهل
 لا سالم - بعده - آرام ذي سلمٍ

فلأنّ، دمعي، بالياقوت، مرجان
وتستكنّ، من الأشواق، أشجان؟!
في الشام، من حادث الأيام، نيران
في الشرق، نور، به الأفاق تزدان
إن كان يبدو، لسرّ الله؛ إعلان
وما تعقّده، في الدين، إيمان
طيباً؛ به ارتاح نسرين، وريحان
وهمة؛ دونها، في الأفق، كيوان
في وجهه؛ شاهدٌ منه، وبرهان
فتلك، للمرتجي جدواه؛ خلجان
يعلو به، فوق هام النجم؛ سلطان
لها أياديه، بالتحريض، إتقان
والنجم، فيما حوت عليه؛ خيران
وعطّلت، منه، أوطار وأوطان
بدرٌ منيرٌ، به للحقّ، تبيان
غداة كلّ كسيف البال، ولهان
أعمالهم، من منار الحقّ؛ طغيان
وإنّ ذلك للإحسان، كفران
إذ ليس يفعل هذا الفعل؛ إنسان!!
وإنّ ذلك، في الدارين؛ خسران
ما فوق ذلك - يا مولاي!! - إمكان
ما حازها قبل قحطان وعدنان
مطهر النفس. ما استغواك شيطان
وأن يكون لوالي الأمر؛ عصيان
إنّ راح ينكر نشر الورّد، جُعّعلان
له مآثر، قد أمسى لها شان
مشوّقة، قبل رؤيا العين، آذان
بيدي مآثر الحسنة؛ إحسان
جمالها، عن سوى عليك؛ منصان
كما ابن هاني، بما أبدته؛ منهان

بلؤلؤ الثغر، منه؛ كنت ذا فرح
هل تنظفي نار أحشائي بزورته؟
كما بهمة عبد القادر، انطفأت
شمسٌ، من الغرب، وافتنا. فكان لها
سرٌّ من الله. قد أحيا الأنام به
حلّت أياديه، جيد الكون، من عطل
آثاره؛ شامة في الشام قد نفحت
ذو طلعة، فوق نجم المشتري، شرفاً
إلى النبي؛ غدا بيدي لنا نسباً
يا مرتجي الغيث!! يتم فيض أنمله
يدنيه، للمرتجي، لطف الجناب. كما
وفي العلوم، التي ساد الأنام بها
يا من!! على البدر، أربى نور طلعت
من بعد بعدك؛ شمس الغرب قد غربت
والشرق؛ أشرق فيه، من سناك لنا
هل تنكر الشام فضلاً، قد خصصت به
إذ يوقظ الشرّ قوم، ساء جهلهم.
بذمة المصطفى المختار؛ قد غدروا
شككت: في أنهم ناس، بما فعلوا!!
علمت: عقى الذي أبداه جهلهم
فقمّت تمنع ما أبدوه، مجتهداً.
ورحت، تظهر في حجب الدما؛ شيماً
كما حميت العذارى، بالظبا، كرمأ
إذ قد نهى المصطفى، عن خفر ذمته
ماذا عليك؛ وقد راعيت سته!!
هذا هو الشرف المحض، الذي اشتهرت
على السماع، بما قد شاع عنك؛ غدت
أمسى لي الشعر سهلاً، حين قام به
فاستجلها غادة، رقت محاسنها
على ابن سهل، معاني لفظها؛ صعبت

مع أنني في زمان، لا يقام به للشعر سعراً وإن زانت أوزان
لكن جذك؛ قد سنّ القبول له أيام أحسن، فيما قال، حسان
وأنت خير امرئ، يقفو مآثره لا زلتَ بدراً، به العليا؛ تزدان

وفي سنة ١٢٧٧ هـ توجه لزيارة حمص وحماة ونزل في حماة بيني الكيلاني
وأعجبه هناك النواير ووصفها بقوله:

وناعورة ناشدتها عن حنينها حنين الحوار والدموع تسيل
فقلت وأبدت عذرها بمقالها وللصلق آيات عليه دليل
ألست تراني ألقم الثدي لحظة وأدفع عنه والبلاء طويل!
وحالي لحال العشق بات محالفاً يدور بدار الحب وهو ذليل
بطأطىء حزناً رأسه بتذلل ويرفع أخرى والعويل عويل

وكان الأمير على رغبة دائمة في التوجه لأداء الحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن يمنعه منه إلا القيام على خدمة والدته المسنة السيدة زهراء بنت محمد بن دوحه الحسني التي كان يرعاها بنفسه ويعنى بشؤونها ويتمتع بمشاهدتها ومجالستها. فلما توفيت آخر سنة ١٢٧٨ هـ عن ثمانين عاماً غادر دمشق في أول رجب من السنة التالية متوجهاً إلى الديار المقدسة عن طريق مصر، مصطحباً معه الشيخ سليم حمزة، والشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي. وخلال اثني عشر شهراً قضاها في مكة لم يغادر فيها حجرته إلا للذهاب إلى الحرم كان لا ينام في اليوم إلا أربع ساعات ولا يأكل فيه إلا مرة واحدة.

وفي مكة أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد القاسي وحصل له فيها فتح كبير أشار إليه في قصيدته الرائية يمدح فيها شيخه المذكور وهي (١):

أمسعود!! جاء: السعد، والخير، واليسرُ وولّت جيوشُ النحاس. ليس لها ذكرُ
ليالي: صدود، وانقطاع، وجفوة وهجران سادات، ولا ذكرُ الهجر
فأيامها، أضحت: قتاً، ودجنة لياليها؛ لا نجم يضيء، ولا بدر
فراشي فيها؛ حشوه الهمّ والفضى فلا التذّ لي جنب ولا التذّ لي ظهر
ليالي أنادي - والفؤاد متيم ونار الجوى؛ تشوي. لما قد حوى الصدر
أمولاي!! طال الهجر. وانقطع الصبر أمولاي!! هذا الليل؛ هل بعده فجر؟!

(١) في المكتبة الظاهرية نسخة من هذه القصيدة محفوظة برقم ٢٤٥ في ورقتين.

أغث - يا مغيث المستغيثين - والهأ
أسائل كلَّ الخلق. هل من مخبر
إلى أن دعنتي همة الشيخ، من مدى
فشمُرت، عن ذيلي، الإزار. وطاربي
وما بعدت عن ذا المحب، تهامة
إلى أن أنخنا، بالبطاح. ركابنا
بطاح؛ بها البيت المعظم، قبلة
بطاح؛ بها الصيد الحلال محرم
أتاني مربِّي العارفين، بنفسه
وقال: فإني منذ أعداد حجة
فأنت بنيتي، مذ (ألت بربكم)
وجذك قد أعطاك، من قدم، لنا
فقبلت من أقدامه وبساطه!!
وألقي على صفري بإكسير سره
وأعني به: شيخ الأنام. وشيخ من
عياذي، ملاذي، عُمدي، ثم عُدتي
غياثي من أيدي العداة. ومنقذي
ومحي رفاثي؛ بعد أن كنت رمة
محمد الفاسي، له من محمد
بفرض وتعصيب؛ غدا إرثه له
شمائله؛ تغنيك، إن رمت شاهداً
تضوع طيباً، كل زهر بنشره
وما حاتم، قل لي. وما حلم أحف؟
صفوح؛ يغض الطرف، عن كل زلة
هشوش، بشوش، يلقي بالرحب، قاصداً
فلا غضب - حاشا - بأن يستفزه
لنا منه صدر؛ ما تكدره الدلا
ذليل لأهل الفقر. لا عن مهانة
وما زهرة الدنيا، بشيء له ترى؟
حريص على هدي الخلائق، جاهداً

ألم به، من بعد أحبابه، الضر
يحدثني عنكم. فينعشني الخبر؟!
بعيد. ألا فادن!! فعندي لك الذخر!!
جناح اشتياقي، ليس يخشى له كسر
ولم يشنه سهل - هناك - ولا وعر
وحط بها رحلي. وتم لها البشر
فلا فخر؛ إلا فوقه، ذلك الفخر
ومن حلها؛ حاشا يبقى له وزر
ولا عجب!! فالشأن أضحي له أمر
لمتظر لفيك. يا أيها البدر!!
وذا الوقت - حقاً - ضمه اللوح والسطر
ذخيرتكم فينا. ويا حبذا الذخر!!
فقال لك البشري!! بذا قضي الأمر
فقليل له: هذا هو الذهب التبر!!
له عمة، ذي عذبة، وله الصدر
وكهفي؛ إذا أبدى نواجذه الدهر
منيري، مجيري، عندما غمّي العمر
وأكسني عمراً. لعمرى؛ هو العمر
صفي الإله، الحال، والشيم الغر
هو البدر، بين الأولياء، وهم الزهر
هي الروض. لكن؛ شق أكمامه القطر
فما المسك؟ ما الكافور؟ ما الند؟ ما العطر؟!
وما زهد إبراهيم أدهم؟ ما الصبر؟!
لهيته؛ ذل الغضنفر، والنمر
وعن مثل حبّ المزن؛ تلقاه يفتر
ولا حدة. كلاً، ولا عنده ضر!!
ووجه طليق؛ لا يزايله البشر
عزيز. ولا تية لديه، ولا كبر
وليس لها - يوماً - بمجلسه نشر؟!
رحيم بهم، بر، خير، له القدر

كساه رسول الله؛ ثوبٌ خلافةٍ
وقيل له: إن شئت قل: قدمي علا
فذلك فضلُ الله؛ يؤتيه من يشا
وذا - وأبيك - الفخر. لا فخر من غدا
وهذا كمال؛ كلٌّ عن وصف كنهه
أبو حسن، لو قد رآه؛ أحبه
وما كلُّ شهم، يدعي سبق صادق!!
وعند تجلّي النقع؛ يظهر من علا
وما كلٌّ من يعلو الجواد بفارس
فيحمي ذماراً، يوم لا ذو حفيظة
ونادى ضعيف الحي. من ذا يغيشني؟!
وما كلُّ سيف ذو الفقار، بحذّه
وما كلُّ طير، طار في الجوّ، فاتكأ
وما كلٌّ من يسمى بشيخ، كمثلّه
وذا مثلٌ للمدّعين. ومن يكن
فلا شيخ؛ إلّا من يخلص هالكاً
ولا تسألن من ذي المشايخ، غير من
تصفّح أحوال الرّجال مجرباً
فأنعم بمصر؛ ربّت الشيخ يافعاً
فمكّة ذي، خير البلاد، فدينتها
بها كعبتان: كعبة؛ طاف حولها
وكعبة حجاج الجناب، الذي سما
وشتان ما بين الحجيّين عندنا
عجبت لبಾಗಿ السّير، للجانب الذي
ويلقي إليه نفسه، بفنائه
فيلقى مناخ الجود والفضل؛ واسعاً
ويلقى رياضاً؛ أزهرت بمعارف
ويلقى جناناً؛ فوق فردوسها العلا
ويشرب كأساً صرفةً من مدامة
فلا غول فيها. لا، ولا عنها نزفة

له: الحكم، والتصريف، والنهي، والأمر
على كل ذي فضل، أحاط به العصر
وليس على ذي الفضل حصراً، ولا حجر
وقد ملك الدنيا، وساعده النصر
فمن يدعي هذا؛ فهذا هو السر
وقال له: أنت الخليفة. يا بحر!!
إذا سبق للميدان؛ بان له الخسر
على ظهر جردبل، ومن تحته حمر
إذا ثار نقع الحرب. والجو مغبر
وكلّ حماة الحي، من خوفهم، فروا
أما من غيور؟! خائني الصبر والدهر
ولا كل كرار عليّاً؛ إذا كروا
وما كل صيّاح - إذا صرصر -؛ الصقر
ولا كل من يدعى بعمرو؛ إذن عمرو
على قدم صدق؛ طيباً له خبر
غريقاً، ينادي: قد أحاط بي المكر
له خبرة، فاقت. وما هو مغتر
وفي كل مصر. بل وقطر؛ له أمر
وأكرم بقطر؛ طار منه له ذكر
فما طاولتها الشمس - يوماً - ولا النّسر
حجيح الملا. بل ذاك عندهم الظّفر
وجل؛ فلا ركن لديه، ولا حجر
فهذا له ملك. وهذا له أجر
تقدّس سرّاً؛ لا يجد له السّير
بصدق؛ تساوى عنده السرّ والجهر
ويلقى فراتاً؛ طاب نهلاً فما القطر
فيا حبذا المرأى!! ويا حبذا الزّهر!!
وما لجنان الخلد. إن عبقت؛ نشر!!
فيا حبذا كأس!! ويا حبذا خمر!!
وليس بها برد. وليس بها حر!!

ولا هو بعد المزج؛ أصفر فاقع
 مُعْتَقَةٌ مِنْ قَبْلِ كَسْرِي، مصونة
 ولا شأنها زق. ولا سار سائر
 فلو نظَرَ الأملأك ختم إنائها
 ولو شمت الأعلام، في الدرس، ريحها
 فيا بُعدهم عنها! ويا بش ما رضوا!!
 هي العلم، كل العلم. والمركز، الذي
 فلا عالم؛ إلا خبير بشر بها
 ولا غين في الدنيا. ولا من رزيئة
 ولا خسر في الدنيا. ولا هو خاسر
 إذا زمزم الحادي بذكر صفاتها
 وقال: اسقني خمرًا. وقل لي: هي الخمر
 وصرخ بمن تهوى، ودعني من الكنى
 ترى ذاتيها: منها؛ هامت عقولهم
 وتاهوا!! فلم يدروا من التيه؛ من هم!!
 وقالوا: فمن يرجى من الكون، غيرنا؟
 تميز بهم كأس. بها قد تولوها
 حيارى!! فلا يدرون أين توجهوا!!
 فيطربهم برق، تالت بالحمى
 ويسكرهم طيب النسيم؛ إذا سرى
 وتبكيهم ورق الحمام، في الدجى
 بحزن وتلحين؛ تجاوبتا بما
 وتسييهن غزلان رامة؛ إن بدت
 وفي شمها - حقًا - بذلنا نفوسنا
 وويلنا عن الأوطان، والأهل جملة
 ولا عن أصحاب الذوائب. من غدت
 هجرنا لها الأحقاب، والصحب كلهم
 ولا ردنا عنها العوادي، ولا العدى
 وفيها حلالي الذل، من بعد عزة
 وذلك؛ من فضل الإله. ومنه

ولا هو قبل المزج؛ قان ومحمر
 وما ضمها دن. وما نالها عصر
 بأحمالها. كلاً؛ ولا نالها نجر
 تخلت عن الأملأك - طوعاً ولا قهر
 لما طاش، عن صوب الصواب، لهم فكر
 فقصدتهم قصد. وسيرهم وزر
 به كل علم، كل حين، له دور
 ولا جاهل؛ إلا جهول به غر
 سوى رجل، عن نيلها، حظه نزر
 سوى واله. والكف من كأسها صفر
 وصرخ ما كنى. ونادى نأى الصبرا!!
 ولا تسقني سراً، إذا أمكن الجهر
 فلا خير في اللذات؛ من دونها ستر
 ونازلهم بسط. وخامرهم سكر
 وشمس الضحى، من تحت أقدامهم، عفر
 فنحن ملوك الأرض. لا البيض والحمر
 فليس لهم عرف. وليس لهم نكر
 فليس لهم ذكر!! وليس لهم فكر!!
 ويرقصهم رعد؛ بسلع له زار
 تظن بهم سحراً. وليس بهم سحراً!!
 إذا ما بكت. من ليس يدري له وكر
 تذوب له: الأكباد والجلمد الصخر
 وأحداقها بيض. وقاماتها سمر
 فهان علينا كل شيء. له قدر
 فلا قاصرات الطرف، تشي. ولا القصر!!
 ملاعبهم مني؛ الترائب والنحر
 فما عاقنا زيد. ولا راقنا بكر!!
 ولا هالنا فقر. ولا راعنا بحر!!
 فيا حبذا هذا!! ولو بدؤه مر!!
 علي. فما للفضل عد، ولا حصر

فله؛ حمدٌ دائمٌ، وله الشُّكر
فقسمتكم ضئى. وقسمتنا كثيراً!!
وهاتِ لنا كأساً. فهذا؛ لنا وفر
به هادياً. فالأجرُ منه، هو الأجر
بها؛ صار لي كنزٌ. وفارقني الفقر
وساعدني سعدٌ. فحصبأونا درٌ
لفيضك محتاجٌ. لجدواك مضطربٌ
أنا العبدُ، ذاك العبدُ، لا الخادم الحرُّ
لنا حصنٌ آمنٌ؛ ليس يطرقه دعر
وأعينهم عمي. وأذانهم وفر
تراهم عيونٌ ينظرون؛ ولا بصراً!!
فليس يرى؛ إلا لمن ساعد القدر
هدانا. ومن نعمائه؛ عمنا اليسر
وروح هداة الخلق - حقاً - وهم ذرٌ
أمسعود!! جاء: السعد، والخير، واليسر

وقد أنعم الوهاب - فضلاً - بشربها
فقل لملوك الأرض: أنتم وشأنكم
خذ الدنيا والأخرى. أباعيهما!! معاً.
جزى الله عنا شيخنا؛ خير ما جزى
أمولاي!! إني عبد نعمائك، التي
وصرت مليكاً؛ بعدما كنتُ سوقةً
أمولاي!! إني عبدُ بابك، واقفٌ
فمر: أمرٌ مولى للعبيد. فلأنني
هيناً لنا. يا معشر الصَّحْب!! إنا
فنحن بضوء الشمس. والغير في دجى
ولا غرؤ في هذا!! وقد قال ربنا:
وغيث السماء، مهما سما؛ هان أمره
ألا فاعملوا - شكراً - لمن جاد، بالذي
وصلوا على خير الورى، خير مرسلٍ
عليه صلاة الله: ما قال قائل:

ثم خرج من مكة المكرمة في أول رجب ١٢٨٠ هـ، وقصد المدينة المنورة عن
طريق جدة، فوصل إليها في ٢٦ رجب، وسكن في المحل الذي كان بيت سيدنا
أبي بكر وبابه من المسجد، واختلّى فيه شهرين، وبقي في المدينة المنورة أربعة
أشهر كاملة حتى ٢٧ ذي القعدة، وكان في أثنائها يكثر من زيارة جبل أحد والشهداء
ومسجد قباء.

وبعد أن حضر ركب الشام توجه معه إلى مكة المكرمة فحج من عامه ذاك ثم
رجع إلى جدة في ١٤ ذي الحجة حيث ركب الباخرة المصرية التي أقلته إلى
الإسكندرية فنزل بها مدة.

وفي الإسكندرية عرض عليه الماسونيون الدخول في جمعيتهم^(١). ثم توجه
إلى دمشق فوصلها في ١٩ المحرم سنة ١٢٨٢ هـ فاستقبل بحفاوة وهنأه بسلامة
الوصول الشيخ محمد الطنطاوي بقصيدة مطلعها:

يا سيداً فاق الورى بما حباه ذو الجلال

(١) انظر مجلة الثقافة، ٢٦٩، ومجلة الحقائق، مج ٢، ح ٢، ص ٢، ٧٨

ثم توجه إلى الأستانة، فخرج من دمشق ٢٧ ذي القعدة ١٢٨١ هـ، وأقام هناك شهرين وزار السلطان عبد العزيز، وتوسط لديه في العفو عن المساجين والمنفيين الذين أدينوا في فتنة الستين فلبى السلطان رجاءه وأصدر إرادته السنية بإطلاق هؤلاء وإعادتهم لبلادهم، ومنحه الوسام العثماني من المرتبة الأولى.

ثم توجه إلى باريس بدعوة من نابليون الثالث وقصدها عن طريق مرسيلىا، وكان غرضه تهدئة الخواطر بعد الفتنة، وإزالة آثار تلك الحوادث، ولما وصل إلى مرسيلىا وعرف الناس موعد سفره إلى باريس تجمعوا ألوفاً أمام الفندق الذي نزل فيه ينتظرون خروجه، فلما حان وقت رحيله أطل من الشرفة، وطلب من مرافقه أن يعلن للناس عدوله عن السفر لدواع خاصة شاكراً لهم عواطفهم واهتماماتهم.

وبعد انقضاء ساعتين جاءت الأنباء إلى مرسيلىا بأن القطار الذي كان الأمير ينوي السفر فيه وقع له حادث تصادم قتل بسببه وجرح الكثيرون، فلم يمض نصف ساعة على انتشار الخبر حتى تجمع الناس ثانية أمام الفندق يهتفون عاش القديس عبدالقادر.

وغداة ذلك اليوم سافر إلى باريس واستقبله أهلها بحفاوة متشربين على جوانب الطرق. وهناك اجتمع بالإمبراطور والوزراء والأمراء والقادة. وزاد له الإمبراطور في راتبه، فصار ما يتقاضاه في الشهر ٦٠٠ ليرة فرنسية وهو ما يعادل آنذ ١٢ ألف فرنك.

ثم توجه إلى لندن في ١٠ ربيع الأول فأقام فيها أربعة أيام واحتفل به الوجهاء، وكانت الملكة وولي العهد وقتها في أطراف البلاد.

ثم رجع إلى باريس، فزار قصر فرساي وشاهد صور الحروب الفرنسية بينه وبين فرنسا وهي تصور انتصار خصومه عليه فقال لمدير القصر: لماذا لم تثبتوا صور الحروب التي انهزمت فيها جيوشكم فضحك المدير وسكت. ثم نزل إلى حدائق القصر فصلى الظهر بمن معه، ثم توجه إلى غابة بولونيا وصلى فيها العصر على مرأى من جموع كثيرة اجتمعت لمشاهدته، وذكر من كان موجوداً بأن الفرنسيين وغيرهم من السياح وقفوا ينظرون إلى صلاته ويمدحونه على إظهار شعائر دينه. وقال بعضهم: إن منظر الأمير واقفاً للصلاة أمام الجميع خاشعاً لله لمن المناظر التي تتحرك لها القلوب وتصرفها إلى جانب الحق. وضربت الحكومة الفرنسية على مكان صلاته سياجاً من حديد احتراماً له.

دعي إلى مصر سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م لحضور حفل افتتاح قناة السويس،

وكان في صحبته الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني، واجتمع هناك بالشخصيات الرسمية العالمية.

وفي سنة ١٢٨٩ هـ قرأ كتاب (الفتوحات المكية) مرتين بعد أن أرسل إلى قونية الشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ محمد الطيب، لتصحيح نسخته على نسخة مؤلفه الشيخ محيي الدين بن عربي الموجودة هناك.

موقف الأمير من حركة سنة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م الاستقلالية:

كان الأمير بعد حادثة الستين محط آمال الناس وأمل دعاة الاستقلال العربي . فعندما انتصر الروس على الدولة العثمانية عقد زعماء بلاد الشام مؤتمر دمشق السري للنظر في استقلالها عن العثمانيين وقر رأيهم على تنصيب الأمير عبد القادر أميراً عليها، لأنه الشخصية التي تستطيع إقناع الأتراك بحق العرب بالاستقلال، وهو الذي يمكن أن تتفق عليه كلمة الدول الأوروبية ذات المصالح المتصارعة في المنطقة بعد مواقفه المشهورة^(١). خاصة وأنه كان أمير الجزائر وأنه شريف النسب وعالم رفيع القدر تنضوي تحت لوائه مختلف الطوائف، ولكن الأمير رغب ببقاء الارتباط الروحي بين بلاد الشام والخلافة العثمانية، وأن يبقى السلطان العثماني سلطاناً على الشام أيضاً وأن يبايع أهل الشام له (للأمير). ولكن الدولة العثمانية قويت بعد ذلك وتولى السلطان عبد الحميد الثاني، وتقدمت بالأمير السن، فطويت صفحة المؤتمر وجمد المشروع.

زار طبريا وصفد سنة ١٢٩٩ هـ يصحبه بعض أولاده وخواصه فأقام فيهما أربعين يوماً للاستجمام.

الأمير والتصوف

توغل الأمير في آخر عمره بالتصوف وعلوم القوم، وأظهر من الرقائق والمعارف ما أشار إلى سمو مقامه ورفيع قدره.

وتنقسم حياته الصوفية إلى ثلاث مراحل:

الأولى: هي المرحلة التي سافر فيها إلى دمشق مع والده وأخذ عن علمائها وتلقى الطريقة النقشبندية فيها عن الشيخ خالد النقشبندي، والطريقة القادرية التي تلقاها ببغداد عن الشيخ محمود الكيلاني القادري. كما أسلفنا ذلك كله. وبعد ذلك رجع إلى الجزائر فأنشأ مراكز في القرى وبين القبائل لنشر الطريقة القادرية. وكان

(١) انظر مقدمة كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارلز تشرشل، ومجلة الثقافة ٢٧١

هؤلاء هم الذين غدوا حركة الجهاد التي قام بها الأمير بعد ذلك.
الثانية: مرحلة عزلته وخلوته في مدينة أمبواز حين كان سجيناً، وإلى هذا أشار في كتابه المواقف (الموقف ٢١١).

الثالثة: هي المرحلة التي تم له فيها الترقى الصوفي، وصل إليها في مجاورته بمكة المكرمة سنة ١٢٧٩ هـ كما ذكرنا حيث أقبل على العبادة والخلوة، والتقى بالشيخ محمد الفاسي الذي أعطاه الطريقة الشاذلية.

للأمير مؤلفات عديدة منها:

- إجابات الأمير عبد القادر^(١) (وهي أسئلة من بعض علماء عصره عن إشكالات بعض عبارات الصوفية كقول الغزالي مثلاً: ليس في الإمكان أبدع مما كان).

- رسالة في الحقائق الغيبية^(٢) (وهي شرح البيتين المشهورين التالين على المشرب الصوفي:

رأت قمر السماء فأذكرتني ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمرأ ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني

- رسالة في شرح سورة التكويد^(٣) (على الطريقة الصوفية).

- المواقف الروحية والفيوضات السوحية^(٤) (وهو أشهر كتبه؛ فسر به بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تفسيراً مزجه بالفقه والتاريخ بأسلوب صوفي، وكان يلقي موافقه في مجالسه الخاصة. ثم اقترح عليه الشيخ عبد الرزاق البيطار أن يدون ذلك ويسجله، فكان هذا الكتاب).

-
- (١) منها نسخة خطية في الظاهرية بخط مغربي رقمها ١١٤١٩ في ١٥ ورقة.
(٢) منها نسختان خطيتان في الظاهرية برقم ٢٤٥ في ورقتين، ورقم ٨٤٢٠ في ورقتين أيضاً. وطبعت هذه الرسالة في كتاب المواقف ٣١٨-٣١٥/٢
(٣) منها نسخة مخطوطة في الظاهرية برقم ٢٤٥ في ثلاث ورقات نسخت سنة ١٢٩٢ هـ.
(٤) منه ست نسخ مخطوطة في الظاهرية؛ الأولى في ثلاثة مجلدات الأول برقم ٩٢٣٦، والثاني برقم ٩٢٦٤، والثالث برقم ٩٢٦٥، والثانية في ثلاثة مجلدات أيضاً؛ الأول برقم ٩٢٦٦، والثاني برقم ٩٢٦٧، والثالث برقم ٩٢٦٨ وتاريخ نسخها ١٣٠٧ هـ، والثالثة في ثلاثة مجلدات كذلك الأول برقم ١٥٢٨، والثاني برقم ١٥٢٩، والثالث برقم ١٥٣٠. وأما النسخة الرابعة فمنها المجلد الأول فقط برقم ٥٣٢٣ بخط محمد سعيد الحلاق وجمال الدين القاسمي، والخامسة منها المجلد الثالث برقم ١١٤٢٤، والسادسة منها المجلد الثالث برقم ٦٩٩٥، وطبع الكتاب مرتين الأولى في القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ، والثانية في دمشق سنة ١٣٩٦ هـ.

- تعليقات على حاشية جده عبد القادر (في علم الكلام).

- الصافنات الجياد (في محاسن الخيل وصفاتها).

- ذكرى العاقل وتنبيه الجاهل (كتاب في الأخلاق والشرعة).

- المقرض الحاد لقطع لسان أهل الباطل والإلحاد.

وله منظومات وأشعار منها:

- القصيدة التي أشرنا إليها في مدح شيخه الفاسي بمكة المكرمة.

- قصيدتان على لسان أهل الله^(١).

- ديوان شعر^(٢) (وفيه قصائد متنوعة المعاني).

ومن شعره يمتدح بالطبيعة الجميلة في دمر:

عج بي فديتك في أباطح دمر	ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا	فكانها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالأراقم جريها	سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذي	يفنيك عن زبد ومسك إذفر
والطير في أدواحها مترنم	برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنى به النساك يزكو حالها	ما بين أذكار وبين تفكر
أين الرصافة والسدير وشعب بو	ان إذا أنصفتني من دمر

وقال يفتخر:

لنا في كل مكرمة مجال	ومن فوق السماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول	وخضنا أبحراً ولها زجال
لنا الفخر العميم بكل عصر	ومصر هل بهذا ما يقال
ومنا لم يزل في كل وقت	رجال للرجال هم الرجال
لقد شادوا المؤسس من قديم	بهم ترقى المكارم والخصال
سلوا عني الفرانس تخبرنكم	ويصدق إذ حكى منها المقال
فكم لي فيهم من يوم حرب	به افتخر الزمان ولا يزال

(١) في الظاهرية: نسخة منها في أربع ورقات برقم ٢٤٥.

(٢) جمعه ابنه الأمير محمد، ومنه نسخة خطية في الظاهرية في ٤٩ ورقة برقم ٤٨٦٣ وفي آخره نبذة في ترجمة الأمير.

وقال يفتخر أيضاً:

تسائلني أم البنين وإنها لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألا فاسألني جنس الفرنسيس تعلمي بأن منايهم بسيقي وعسالي
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي وبني يحتمي جيشي وتمنع أبطالي
كان الأمير رجلاً معتدل القامة، عظيم الهامة، ممتلئ الجسم، أبيض اللون،
مشرباً بحمرة، أسود الشعر، كث اللحية، أفنى الأنف، أشهل العينين يخضب
بالسواد.

وكان عاكفاً على شهود صلاة الجماعة في أوقاتها يلازم صلاة الفجر في المسجد
القريب من داره بحي العمارة (زقاق النقيب) لا يتخلف عن ذلك إلا لمرض.

كثير التهجد والخلوات، كثير الصدقات، يبر العلماء والصالحين والفقراء
برواتب شهرية، ويتصب لقضاء حوائج العباد، عاملاً بتقوى الله في السر والعلن،
يصوم شهر رمضان على الكعك والزبيب، ويعتزل خلاله الناس كلهم، وكانت له خلوة
يتحنن فيها بقصره في دمر.

كان الأمير حليماً زاهداً ورعاً، وله مواقف إنسانية ذكرنا بعضها وخاصة في حادثة
الستين. وكان معظماً عند ملوك البلاد الأوروبية، وكانوا يطلبون صورته ويرغبون أن
يكتب عليها بخطه فكان يكتب أحياناً هذه الأبيات:

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري فليس يريك النظم صورتنا العظمى
فثم وراء الرسم شخص محجب له همة تعلو بأخمصها النجما
وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره ولكنه بالفضل والخلق الأسمى
وإن جمعت للمرء هذي وهذه فذاك الذي لا يتغي بعده نعماً

وكان الناس يلجؤون إليه في حل مشكلاتهم وخصوماتهم فيصلح بينهم
ويرتضون أحكامه، وكان يعطي من ماله إذا ما تبين له عجز الذي يحكم عليه عن
الأداء، وكان ييب الشبان مهوراً للزواج، وقد يتوسط الأهالي لديه للعفو عن المحكومين
فما كان يرد الرجاء إذا جاءه من يكفل المحكوم ويضمن توبته، فكان مسموع الكلمة
لا يرد له الولاة طلباً، ويتقربون إليه بتنفيذ ما يشير به. واعتاد الفقراء أن يقصدوه لتجهيز
موتاهم، وعين مخصصات للفقراء تعطى إليهم أيام الجمعة، ومنها الخبز الذي يوزع
على ميثات الأسر المععدة طوال شهر رمضان.

أحبه أهل دمشق وعلمائها وأعيانها وأجمعوا على تقديمه حتى قال له الشيخ عبد الرزاق البيطار يخاطبه يوماً: «نحن أهل دمشق نعدُّ أن نعم الله علينا عظيمة وكثيرة في هذه البلدة وقد زادنا جلّت عظمتها من فضله أن جعل إقامتك فيها فأقادنا من علومك ومعارفك».

وكان بيته في دمشق مركز اجتماع أعيانها لمناقشة المسائل الهامة وموئل العلماء، وكانت له فيه جلسة خاصة مع كبارهم يفسّر فيها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وأقوال السلف الصالح رضي الله عنهم على طريقته الخاصة التي أعجبت الكثيرين فرجوه أن يسجل آراءه في كتاب فكان كتابه (المواقف).

وكان من أقرب المقربين إليه من العلماء الشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ محمد الطيب، والشيخ محمد الخاني، والشيخ عبد الرزاق البيطار، وقال هذا الأخير في كتابه (الحلية): «حضرت عليه مع من حضر كتاب (فتوحات الشيخ الأكبر) و(رسالة عقلة المستوفز له) وكتاب (المواقف) للأمير وهو كتاب كبير في الواردات التي وردت عليه ونسبت إليه، وكنا لا يرد علينا إشكال من آية أو حديث أو غير ذلك إلا وأجاب عنه بأحسن جواب بفتح الملك الوهاب وكان في كل مدة قليلة يدعوننا إلى بعض محلاته خارج البلد، فكان يدخل علينا كل سرور ويفرغ علينا كل حبور، وفي كل سنة في أيام الصيف يخرج إلى قصره في أرض دمر، فكان يأمرني بالخروج معه ولا زلت ملازماً له إلى أن توفي».

ومن مواقف الأمير المشهودة موقفه من قضية مدرسة الأشرفية المعروفة بدار الحديث النووية، وملخصها أن رجلاً من الأروام يدعى بانكو استولى على دار تابعة للمدرسة المذكورة، ثم امتدت يده إلى الزاوية الغربية من المسجد واقتطعها منه وأعدّها لوضع دنان الخمر، فقام عليه الشيخ يوسف المغربي، وتوجه إلى الأستانة وحصل على مرسوم سلطاني بإخلاء الدار منه. وفي الأستانة اجتمع الشيخ يوسف بالأمير وشرح له قضية المدرسة الأشرفية فلما رجع الأمير إلى دمشق وشاهد الأمر كما ذكر له أحضر الرومي واشترى منه ما استولى عليه، ثم أوقف الدار على الشيخ يوسف وذريته وذلك في ٢ جمادى الأولى ١٢٧٢ هـ وأمر بترميم المسجد والمدرسة على نفقته^(١) وقرأ فيها يوم افتتاحها صحيح البخاري بعد صلاة الظهر إلى العصر وختمه في آخر يوم من شهر رمضان.

(١) انظر تفصيل القصة في ترجمة الشيخ يوسف المغربي (ت ١٢٧٩ هـ).

$$\frac{2}{122}$$

محمد بن اسماعیل بن یونس
 از نام المحقق الشیرازی
 محمد بن اسماعیل بن یونس

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

راجع المشرق
 المأخوذ من
 مصطفى المجلد
 السند في
 عفا الله عنه
 من حج الأمان
 بعض
 بعض

أخبرني شيخنا المولانا عبد الله بن محمد
ابن علي الدين الزبيدي قال في صحيح

سند الأمير عبد القادر بالحدِيث النبوي

ومن الطرائف التي جرت للأمير أنه في سنة ١٢٩٦ هـ شاع في الناس خبر موته وانتشر في البلاد سريعاً، وجاءت البرقيات والرسائل تعزي به فقال حينذاك: «الموت لا بد منه عند نهاية الأجل، والحمد لله الذي أراني وأسمعني ما يقال في جانبي من الخير بعدي. ونظمت برثائه حياً قصائد منها مراثية لمحمد إسحاق الأدهمي الطرابلسي مطلعها:

هذا المصاب الذي قد كنت أخشاه وافي فما حيلتي فيما قضى الله
أصيب الأمير بكلتيه ومثانته ومرض مرض الموت في أواخر شهر جمادى الآخرة عام ١٣٠٠ هـ/ أيار ١٨٨٣ م وكان خلاله يشتغل بالمراقبة والذكر. ولم يظهر ضجراً ولا تأوه قط ولا ترك الصلاة في وقت من الأوقات لكنه عجز في آخر مرضه عن الوضوء فصار يتيمم، وكان في مرضه قليل الكلام.

واستمر تردد الأطباء عليه خمسة وعشرين يوماً إلى أن توفي منتصف ليلة السبت ١٩ رجب ١٣٠٠ هـ/ ٢٤ أيار ١٨٨٣ م في قصره بقرية دمر غرب دمشق عن ٧٦ عاماً.

ونقل صباح اليوم التالي في عربته إلى داره بدمشق، حيث تولى تجهيزه ضيفه الشيخ عبد الرحمن عlish شيخ علماء الأزهر، ثم حمل نعشه على الاكتاف إلى الجامع الأموي، فصلي عليه في مشهد حافل لم يسبق له مثيل.

واجتمعت الآراء على دفنه بجوار الشيخ محيي الدين بن عربي، فاجتمع مجلس إدارة الولاية للمذاكرة في هذا الأمر ووافق عليه بعد ترخيص من الباب العالي. وسارت جنازته على طريق الصالحية حتى بلغت دار الحكومة، وهناك استقبل النعش قناصل الدول باللبسة الرسمية مع فريق من الجنود العثمانيين والأمراء العسكريين والملكيين، وسار خلف جنازته ثلاثون ألفاً عدا الواقفين بالطرقات حتى شيعوه إلى مشواه الأخير.

رثاه شعراء كثيرون وتكلم في أمره خطباء عديدون. ومما قاله فيه الشيخ الشاعر محمد الهلالي:

سهام قضاء الله ليس لها ردّ	وكأس الردى ما من إذاقته بدّ
بلى كل شيء هالك غير وجه من	له الحكم حتماً لا شريك ولا ضد
محال إذا جاء المقدر حيلة	لمستصم من أن يلتم به كد
عناء حياتي كلها بعد سيد	به فجع الإسلام والعلم والمجد

وأظلمت الأوطان حين بجسمه
سقى وابل الرضوان أعطر مرقد
كان لم يكن برّ، كان لم يكن تقى
طوى الكل بعد النشر بعض من الثرى
مضى الجود والإحسان والعفة انقضت
مضى ابن بني الزهراء حقاً لجده
معز اليتامى والأرامل كنزهم
بروحي بروحي آه لو يفندى بها
هنيئاً لجنات النعيم بقرب من
هنيئاً لمحبي الدين قدس سرّه
مصاب أصاب الدين لو أن بعضه
قيامه رزء لو ترى الناس بالبكا
لهم زحل^(١) بالذكر لله والدعا
سكارى وما هم بالسكارى وإنما
سرى نعشه فوق الرقاب وحوله
لقد جل عن أن يدفنه بروضة
تقى تقى جاور الله في البقا
وقور غيور ناسك متواضع
على أنه البسام يوم كريمة
فتى من رجال الله كان على العدى
فتى كان لا يخشى من الخصم سطوة
فتى في سبيل الله كان مجاهداً
همام كميّ كم أزاح ملمة
هزبر هصور في الجزائر كم له
سراج على سرج الجواد كأنما
نعيناه للمحارب والحرب والتدى
عطاء ولا منّ وعفو ولا حقد

تنورت الأكفان وابتهج. اللحد
حوى بحر فضل ما لتياره حد
كان لم يكن صدق، كان لم يكن رشد
فلم يبق إلا الذكر والشكر والحمد
وصاحبها العرفان والحلم والزهد
فيا حبذا الأبناء والأب والجد
إذا الضيع الشهباء ذلت بها الأسد
أمير بأمر الله جد به الجد
أرانا جنحيم الحزن من بعده البعد
بجار حماه اليمن للجار والسعد
على أحد لاندك من هوله أحد
محاجرهم جرحى وأعينهم رمد
وأدمعهم سحب وأموالهم رعد
وفاة ابن محيي الدين حق بها الوعد
ملائكة الرحمن أنوارهم تبدو
هي الروح والريحان والمسك والند
وأقبل بالشرى على القادر العبد
على أنه المقدام والأسد الورد
إذا عيشت من تحت فرسانها الجرد
حساماً صقيلاً لا يقل له حد
وليث الشرى^(٢) حاشا يروعه القرد
وليس له إلا رضى ربه جهد
بسيف رقاب المعتدين له غمد
وقائع لا يقوى على حصرها عد
من الرعب والإرهاب يقدمه جند
فكل علاه الحزن والسهد والوجد
وجبر ولا كسر وودّ ولا صد

(١) كذا في الأصل، ولم يظهر لنا معناها، ولعلّ أصلها: لهم زجلات الذكر والزجلات: صوت الناس وضجيجهم.

(٢) الشرى: مأساة جانب الفرات يضرب بها المثل فيقال: «هو كأسد الشرى».

حسان مزايا بانتقال حليفا
لحي الله داراً للزوال نعيمها
غرور حياة وهي غراء حية
فتاة تراها وهي شر عجوزة
تصيد البرايا واحداً بعد واحد
مجربة تباً لها من خؤونة
عروس ولكن المحال حليفا
لعوب كما الصهبا بالباب أهلها
فما نصحت إلا وغشت وهكذا
شكونا ونرد^(١) الدهر ليس بسمع
فليس لنا إلا التوكسل والرضى
فصبراً جميلاً إنها لمصيبة
ولكن إذا في نار حزن ثوى الحجا
وآل رسول الله أولى من الورى
هم الحسينون الألى صوت صيتهم
هم الكاظمون الغيظ والصابرون هم
وهم عُذَّتِي فِي شِدَّتِي وَذَخِيرَتِي
ولا سيما أنجال من قد مضى ومن
مصاييح فضل عظم الله أجرهم
وأبقاهم الرحمن للناس رحمة
نعم كلهم نجب كرام ثوابت
وأكبرهم من دونه الدهر همة
محمد السامي سماء مقامه
أمير وجيه الوجه والجاه كوكب
لإحسانه تصبو العفاة وحسنه
بديع معان عن أداء بيانها
كفى بشذاه سيرة وسريرة

تعطل جيد المجد وانفصم العقد
وأولها مهد وآخرها لحد
بأنياها سم يمازجه الشهد
كما الدهر لم يصرم حباتها الشد
فلم ينج منها لا كريم ولا وغد
فلا موثق منها يدوم ولا عهد
لها المين مرط والخذاع لها بُرد^(٢)
تروح بهم طوراً وطوراً بهم تغدو
قياس قضايها بنا العكس والطرود
وهل تنفع الشكوى إذا حكم النرد
بما قد قضاه الواحد الأحد الفرد
يذوب أسى من حرها الحجر الصلد
خبت ومع التسليم أخدمها البرد
بأن يتحلوا بالوقار ويعتدوا
به ألسن الإحسان ما برحت تشدو
رياحين زهراء النبي إذا عدوا
بدنياي والأخرى هم القبل والبعد
رحيق شراب الأنس طاب له الورد
ولا ساءهم من بعد مَنْ فَقَدُوا فَقَدْ
سحائبها يروى بها الغور والنجد
لدى الروح حتى إن أصغرهم طود
بغيرة ندب أوحده ماله ند
على الشمس لا نكر هناك ولا جحد
منير به العلياء تم لها السعد
تحن له ليلي وتشتاقه هند
لقد كلت الأقلام والألسن اللد
فما الشيخ ما القيصوم والبان والرند

(١) المِرْط : كل ثوب غير مخيط، وكساء من صوف وغيره يؤتزر به، والثِرْد : ثوب مخيط، وكساء من الصوف الأسود يلتحف به.

(٢) النرد : لعبة وضمها أحد ملوك الفرس، وتعرفها العامة بلعب الطاولة (فارسية).

وما غابني بالمدح إلا تشرفي
إليه سرت أسرار والده الذي
وسار إلى المأوى بتاريخه وقد

بأروع من بيت القصيد هو القصد
بعدن مع الأبرار طاب له الخلد
دعاه بجنات البقا رجب الفرد
سنة ١٣٠٠ هـ.

عليه من الرب الرحيم السلام ما
وما ابن هلال راح ينشد قائلاً

بكت مقلة وابتل من دمعها خد
سهام قضاء الله ليس لها رد

وقال الشاعر عمر البرير:

لَمْ اسودت الدنيا ولم يك غاسق
خليلي رعاك الله قل لي ما الذي
فهل آن خلي للقيامة وقتها
وبعث الورى والحشر ثم وإنه
أرى الكون مسوداً أرى الشمس لم تب
وإن نجوم الأفق غير طوالع
وأين السما غير الظلام فلا يرى
أزالت وإلا بالظلام تحجبت
وما لي أرى الأطواد ليست بحالها
ومالي أرى الأطيار خرساً ولم يكن

وأظلمت الآفاق حتى المشارق
لقد صار في الدنيا فإنك صادق
ونفخ بصور ثم يصعق صاعق
تقوم لرب العالمين الخلائق
أرى البدر لم يسفر وما هو شارق
فلم يبد مسبق ولم يبد سابق
ولو جد بالتحديق والوثق وامق
فما شأنها قل لي فصدري ضائق
فكم قد هوى طود وكم ذك شائق
عن الصبح والتفريد يسكت ناطق

إلى أن قال:

وها لم أزل فيه إلى أن أجبني
بصوت خفي قد يدق سماعه
وقال نعم أودى خليفة مالك
وجيه أولي التدقيق وهو أميرهم
هو الشمس عبد القادر السيد الذي

وأدمعه من مقلتيه دوافق
إجابة باك وهو بالدمع شارق
ومالك هذا العصر من لا يسابق
له نشرت فيهم عليه البيارق
على فضله أهل العلوم تصادقوا

واختار أهله من بين مئات الأبيات والرسائل أربعة أبيات للشيخ عبد المجيد
الخاني لتكتب على قبره وهي:

لله أفق صار مشرق دارتي
الشيخ محيي الدين ختم الأوليا
والفرد عبد القادر الحسني الأمير

قمرين هلاً من ديار المغرب
قمر الفتوحات الفريد المشرب
قمر المواقف ذا الولي ابن النبي

من نال من أعلى رفيق أرخوا أزكى مقامات الشهود الأقرب

وترك الأمير بعده زوجته ابنة عمه أم البنين وعشرة أبناء ذكور وهم الأمراء محمد
باشا ومحبي الدين باشا وإبراهيم والهاشمي وأحمد وعبد الله باشا وعلي باشا وعمر
وعبد الرزاق وعبد المالك وست بنات وثلاث جوار جركسيات وجارية حبشية.

ومن المصادفات أنَّ الأمير ولد في شهر رجب، وبويع بالإمارة في شهر رجب،
وسلم بعد حروبه في شهر رجب، وتوفي في شهر رجب.

وفي سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م رغبت حكومة الجزائر وبعد سبع سنوات من
استقلالها بنقل رفات الأمير إلى الجزائر، فتم ذلك في احتفال رسمي مهيب.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	- المقدمة
٩	- نسب الأمير إلى النبي ﷺ
٩	- أسرته ، ولادته
٩	- بداية تعليمه
١٠	- رحلته في طلب العلم إلى وهران
١٠	- حجه سنة ١٢٤١ هـ مع والده
١٠	- زيارته دمشق وأخذه الطريقة النقشبندية عن الشيخ خالد
١٠	- زيارته بغداد وأخذه الطريقة القادرية عن الشيخ محمود الكيلاني
١٠	- عودته إلى الحجاز لأداء الحج مرة أخرى سنة ١٢٤٣ هـ
١١	- مبايعة الناس له بيعة عامة أميراً سنة ١٢٤٨ هـ
١١	- إقامته للإمارة وتنظيمها
١١	- معاهدة دي ميشيل مع فرنسا سنة ١٢٤٩ هـ
١١	- نقض الفرنسيين للمعاهدة ومقاتلة الأمير وانتصاره عليهم
١١	- مصالحة فرنسا للأمير سنة ١٨٣٧ م بمعاهدة
١٢	- نقض الفرنسيين للمعاهدة ومقاتلة الأمير لهم أربع سنوات
١٢	- اضطرار الأمير إلى الانسحاب وتسليم نفسه للفرنسيين
١٢	- شروط الأمير للتسليم
١٣	- خداع الفرنسيين وانتقال الأمير إلى طولون ثم أمبواز سجيناً
١٣	- إطلاق سراحه بعد زيارة الإمبراطور نابليون الثالث له
١٣	- توجهه إلى باريس ثم الأستانة
١٣	- قصيدته في مدح السلطان عبد المجيد
١٤	- إقامته في بروسنة

- ١٥ - ارتحاله إلى دمشق وإقامته فيها سنة ١٢٧٢ هـ
- ١٦ - توجهه لزيارة القدس والخليل سنة ١٢٧٣ هـ
- ١٦ - قراءته دروس العلم بدمشق
- ١٧ - الأمير وحادثة الستين
- ١٨ - قصيدة الشاعر أمين الجندي في مدح الأمير
- ١٩ - قصيدة الشاعر سليمان الصولة
- ٢٠ - قصيدة الشاعر إبراهيم الأحذب
- ٢٢ - زيارة الأمير لمحض وحماة سنة ١٢٧٧ هـ
- ٢٢ - قصيدة للأمير في وصف النواعير
- ٢٢ - حجه ١٢٧٩ هـ
- ٢٢ - تلقيه الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد الفاسي
- ٢٢ - قصيدته في مدح شيخه الفاسي
- ٢٦ - وصوله إلى دمشق سنة ١٢٨٢ هـ
- ٢٧ - زيارته للأستانة وباريس ولندن
- ٢٧ - حضوره حفل افتتاح قناة السويس ١٢٨٦ هـ
- ٢٨ - قراءته للفتوحات المكية وتصحيح نسخته على نسخة ابن عربي
- ٢٨ - الأمير والتصوف
- ٢٩ - مؤلفاته
- ٣٠ - شعره ، نماذج منه
- ٣١ - صفاته
- ٣٢ - قضية مدرسة دار الحديث الأشرفية وموقفه منها
- ٣٣ - صورة سند الأمير بالحديث النبوي
- ٣٤ - وفاة الأمير
- ٣٤ - رثاء الشعراء للأمير
- ٣٩ - الفهرس العام